

منهج التحليل الأسلوبي وإشكالية التطبيق

أ. علي زواري أحمد جامعة الوادي ، أ. د. أحمد بلخضر جامعة ورقلة

ملخص: بحثنا هذا يتحدث عن المنهج التحليلي الأسلوبي وإشكالية التطبيق، الذي تبرز إشكاليته في بيان الإشكالات التي تعترض المحلل الأسلوبي أثناء مقارنته النصوص الأدبية بالمنهج الأسلوبي وما يعتمد عليه من آليات وإجراءات أثناء تطبيقها، وقد حاولنا من خلال ذلك لإبراز أهم النقاط المتعلقة بفك هذا الإشكال، انطلقنا من تقرير المنهج الأسلوبي وأهميته، ثم التعرّيج على علاقة الأسلوبية بالعلوم الأخرى، والاختلاف في بعض المصطلحات في علم الأسلوب، ما أدى إلى اختلاف المنطلقات أثناء التحليل، لنصل بعدها إلى أبرز الإشكالات التي تعترض المحلل الأسلوبي أثناء التطبيق، ونختم البحث بأهم الأسباب الكامنة وراء هذه الإشكالية.

Abstract: We have discussed in the research paper the stylistic analytical methodology and problematic issue of its application, which highlights the Questions faced by the stylistic analyst during his approach in literary texts to stylistic curriculum and what depends on it as far as the mechanisms and procedures during the application, so, we have tried through it to focus on the most important points In order to clarify that confusion, by establishing stylistic methodology and explaining its importance, then stylistic relationship to other sciences, also, the differences in some of the terminology for the science of style, which led to a different trends during the analysis, and problems faced by stylistic analyst during the application. finally, we have deduced the search by most important underlying causes of this problem..

مقدمة: لقد شهدت الدراسات اللغوية الحديثة العديد من المناهج في دراسة النصوص الأدبية، الشيء الذي أسهم في خدمة الأدب، وكان رافدا كبيرا في تطوير نظريته، ومع ذلك فقد شهدت تلك المناهج بعض المشكلات، منها مشكلة المصطلح، التي أخذت حيزا كبيرا من الكتابة، وما نتج عنه من اختلافات في التنظير والتطبيق، كما ظهرت إثر ذلك مشكلات في المناهج أثناء التحليل، ومن تلك المناهج التي قارب بها أصحابها لغة النصوص: المنهج الأسلوبي الذي غدا من أهم المناهج التحليلية في الدراسات الأدبية اللغوية، بل إن الأسلوبية من المصطلحات النقدية الحديثة، التي تركز في دراستها على الظاهرة

اللغوية في النص الأدبي، محاولة إيجاد الصلة بين اللغة الفنية المشكلة للنص، والدلالات التي يمكن عن طريقها الوصول إلى المعنى الغائب منه، ومن هذا كان موضوع بحثنا "منهج التحليل الأسلوبي وإشكالية التطبيق" لنقف على أهم الإشكالات التي تعترض المحلل الأسلوبي أثناء مقارنته النصوص الأدبية بالمنهج الأسلوبي وما يعتمد عليه من آليات وإجراءات أثناء تطبيقها.

لهذا يمكن أن نطرح التساؤلات التالية، قصد تسهيل الانطلاق في التطرق لفك هذه الإشكالية، ومن تلك التساؤلات: أين تكمن إشكالية التطبيق أثناء التحليل الأسلوبي؟ وهل القضية في المناهج؟ أم أنها في الاختلاف في المصطلح؟ أم في كليهما؟ أم الاختلاف في أحدهما أدى للاختلاف في الآخر؟ أم أن الإشكالية في عدم وجود قواعد معيارية ضابطة للمنهج الأسلوبي نجم عنها عدم وجود منهج متكامل، فكانت الأسلوبية عالية على غيرها من العلوم الأخرى؟.

ونبدأ الآن في طرح الموضوع عنصراً عنصراً حتى نصل إلى نهايته، وفق نقاط متسلسلة أولها: أولاً - الأسلوبية منهج تحليلي: المراد بالمنهج هو طريقة للبحث توصلنا إلى نتائج مضمونة أو شبه مضمونة في أقصر وقت وبأقل جهد ممكن كما أنه وسيلة تحصّن الباحث من أن يتيه في دروب ملتوية من التفكير النظري، ولا يستطيع تحقيق النتائج العلمية المرجوة في زمن قياسي.

ومن المعلوم عند الدارسين - وخاصة من ينتقد الأسلوبية - أن الأسلوبية ولدت من رحم اللسانيات، فهي ترتبط بها ارتباط النashئ بعلّة نشوئه¹، ابتداء من شارل بالي تلميذ زعيم الدرس اللغوي المعاصر سوسير، إلى من جاء بعده ثم تكونت من خلالهم الاتجاهات الأسلوبية المختلفة، لأن اللسانيات سابقة في الوجود للأسلوبيات من حيث الزمن، يقول بوحوش رابح: «لقد أنجبت لسانيات دي سوسير أسلوبيات شارل بالي، وولدت البنيوية التي احتكت بالنقد الأدبي، فأخصبها مع شعريات جاكبسون وتودروف وأسلوبيات ريفاتير، وهي مدارس استمدت رصيدها المعرفي من اللسانيات، لذا يذهب ميشال ريفاتير في كتابه محاولات في الأسلوبيات البنيوية إلى أن الأسلوبيات منهج لساني»².

وبالتالي أخذت الأسلوبية من اللسانيات الصفة العلمية الوصفية في دراسة اللغة، فاللسانيات زودت المنهج الأسلوبي بطابع العلمية الوصفية في دراسة النصوص من خلال لغتها، وبذلك جعلت منه منهجاً علمياً وصفيّاً، وتنفي عن نفسها المعيارية، وإرسال الأحكام التقييمية بالقبول أو بالرفض، فالأسلوبية من المقاربات التي اقتصرّت في درسها للنص الأدبي على جانبه اللغوي، وعليه تبقى الأسلوبية منهجاً نقدياً يعمل من أجل كشف أسرار اللغة الأدبية في النص الإبداعي، من خلال وحداته المكونة له، وانطلاقاً من اللغة كوسيلة وغاية، كوسيلة باعتبارها مدخلا موضوعيا

للنص، للوصول إلى استنطاقه، والوقوف عند مكوناته، وبيان خصائصه وسماته الجمالية، وكفاية سعياً وراء الوقوف عند درجة الأدبية في النص الأدبي.

فإذا كانت اللسانيات تقف عند دراسة الجملة؛ فإن الأسلوبية منهج من مناهج التحليل لكل الخطاب، وما يتركه هذا الخطاب من أثر في نفس المتلقي، فهي تهتم بالكيان اللغوي الذي يتجلى فيه القول، وتتميز بخصوصية المقاربة التي تقف عند حدود جمالية القول، فتحاول أن تدرس ما هو داخل النص، وتنتهي عند التحليل، وعليه فالأسلوبية من المقاربات التي اقتضت في درسها للنص الأدبي على جانبه اللغوي، لذا فهي أخصب المناهج وأقربها إلى الدراسات اللغوية الحديثة المعتمدة الوصف العلمي منهجاً³.

وبالتالي تركز الأسلوبية- بوصفها منهجاً نسقياً يقصي من طريقه كل السياقات الخارجة عن النص - على مقاربة لغة النص، وأسلوب الكاتب فيه انطلاقاً من إمكاناته اللغوية المتاحة، ومن ثم فهي ترتكز قراءتها للنص على مفهوم الأسلوب كمجموعة من الخيارات يقوم بها الكاتب في نصه على مستويات اللغة المختلفة، اللفظية منها والنحوية بشكل رئيسي ثم الصوتية، وما تفرزه هذه الخيارات الأسلوبية من وظائف ومعانٍ ومدلولات أسلوبية ناشئة عن علاقات متشابهة، ومترابطة أو متنافرة، وأحياناً معقدة بين مستويات اللغة، بحسب السياق الذي ساهم في إنتاج النص.

ثانياً) - مستويات التحليل الأسلوبي⁴: وبما أن التحليل الأسلوبي مستمد منهجه الوصفي من اللسانيات، فإنه يعتمد في تحليله على مستويات التحليل اللساني، ويكاد هذا الأمر يكون محسوماً عند النقاد الأسلوبيين، بأن التحليل الأسلوبي يتخذ من مستويات التحليل اللساني الذي وضعه دي سوسير للكلام، بأن الكلام تطبيق أو استعمال للوسائل والأدوات الصوتية، والتركيبية، والمعجمية، والدلالية... خطوات في تحليله، منها يدرس لغة النص، والوقوف على ما يقوم المحلل الأسلوبي بدراسته في هذه المستويات يعيننا على فهم إشكالية التطبيق، ففي كل مستوى هناك جملة من القضايا هي مادة التحليل للنص المدروس، وتختلف من نص لآخر، وجملة هذه القضايا تتمثل في:

1 - المستوى الصوتي: كالإيقاع، الوزن، النبر، النغم، التنغيم، الإعلال، الإبدال، الوقوف، القافية، المقاطع، التوازن، التوازي، التكرار، المخارج، الصفات... وظائف الأصوات، وتعلق ذلك بالدلالة والسياق.

2 - المستوى التركيبي: ويتعلق بالجانب النحوي والصرفي، كدراسة الجملة، طولها وقصرها، والفعل والفاعل، والمبتدأ والخبر، والروابط، والعلاقات، والتعالقات، والتقديم والتأخير،

والحذف والذكر، والبنية العميقة والسطحية، وبناء الكلمة، والاختيارات، الانزياحات، والوظائف النحوية، ونوع الأسلوب... الخ.

3 - المستوى المعجمي: كإحصاء المفردات، ومعرفة مدلولاتها، والتطورات الطارئة عليها، وعلاقتها في التركيب، ومدلولاتها السياقية، وتحديد الحقول المعجمية الغالبة في النص، ثم الكشف عن دورها وأهميتها ضمن تفعيلها في السياق العام وعلاقتها مع المستويات الأخرى... الخ.

4 - المستوى الدلالي: ينطلق من الجانب المعجمي للوقوف على الدلالة الأصلية، ليرصد التطور الدلالي، ويظهر الانحرافات المستعملة، ويقف عند استخدامات الألفاظ المختلفة، ومعرفة الحقول الدلالية، وبيان أوجه الارتباط بين الدال والمدلول، وإبراز دلالة السياق... الخ.

ثالثاً) - دراسة الأسلوب: وعندما نرجع لركيزة التحليل الأسلوبي نجد أن الأسلوب هو الموضوع الأساسي الذي تبحث فيه الأسلوبية، فهي المنهج الذي يحدد القوانين والمقاييس التي يعرف بها الأسلوب وجمالياته وشعرته في النص الأدبي.

وعندما ننظر لموقف العلماء نجد من قال بأن مصطلح "علم الأسلوب" مرادف للأسلوبية، وعليه انتقل الأسلوب في النقد الحديث من كونه يعني الفن⁵ أو الطريق أو المذهب أو الوجه⁶، ومن كونه عاماً مميحاً يختص بالموضة والفن والسياسة وتدبير الحياة اليومية، إلى علم ومنهج نقدي قائم بذاته يتكفل برصد الملامح المميزة للخطاب الأدبي.

ومتهم من فرق بينهما، فقال بأن علم الأسلوب يقف عند تحليل النص بناء على مستويات التحليل وصولاً إلى علم بأساليبه، أما الأسلوبية فهي تتجاوز النص المحلل المعلومة أساليبه إلى نقد تلك الأساليب بناء على منهج من مناهج النقد المعروفة، يقول صلاح فضل: «الأسلوب: محصلة مجموعة من الاختيارات المقصودة بين عناصر اللغة القابلة للتبادل»⁷.

ولذا دأب المحللون الأسلوبيين على رصد أساليب الكتاب وتفردهم واختلافهم، الواحد عن الآخر، من خلال المحددات الثلاث: الاختيار. التركيب. الانزياح. وبعضهم جعل السياق مكان التركيب. على اعتبار أن الأسلوبية منهج نقدي نسقي غايته مقارنة النصوص في سياقها اللغوي المتمثل في النص، ومدى تأثيره في القراء، فيجعل الأسلوب من الأسلوب مادة لدراسته، وبالتالي فالأسلوب حقل خصب للدراسة الأسلوبية تنظيراً وتطبيقاً.

وبعد معرفة مستويات التحليل الأسلوبي وما يدرس في ذلك، والوقوف عند مكانة الأسلوب في الدراسة الأسلوبية؛ فإن الأمر يقتضي منا التطرق لاستثمار المنهج الأسلوبي للعلاقات المتاحة التي يجعلها دعماً في عملية التحليل، حتى نقرب بخطوة أخرى نحو إشكالية التطبيق.

رابعاً) منطلقات التحليل الأسلوبي: لابد أن نعرف بداية أن التحليل الأسلوبي ينطلق من ثلاث قضايا أساسية تتمثل، في: أولاً: اللغة بكل مكوناتها وإمكاناتها.

ثانياً: العناصر غير اللغوية (المؤلف، الموقف، القارئ، ...).

ثالثاً: الجمالية المتمثلة في التأثير على القارئ.

فمن خلال استثمار الأسلوبية للإمكانات المتاحة في العلوم الأخرى، والاستفادة منها في تحليل لغة النص المدروس، فإن هذا الاتساع جعل منطلقات الأسلوبية في التحليل الأسلوبي تتعدد وتختلف، حسب نوع التحليل وخواصه، ما أنتج إشكالية عند التطبيق، فيختلف الانطلاق على حسب نوعية التحليل:

فإذا كان المنطلق – مثلاً - من دراسة البنية يكون التحليل من مباني المفردات والتراكيب (الجملة) وما تعلق بذلك، من قضايا ومسائل اللغة.

وإن كان المنطلق من دراسة الدلالة يكون التحليل من دراسة المعاني الجزئية والكلية، المعجمية والتكبيبية والسياقية، والأغراض والمقاصد، والأجناس المعتمدة.

وإن كان المنطلق من دراسة البلاغة يكون التحليل من الظواهر البلاغية، والصور المستخدمة، كالمسند والمُسند إليه، والخبر والإنشاء، والتمثيل والتشبيه والاستعارة والكنائية والمجاز... الخ.

وقد يكون المنطلق من جوانب أخرى مثل المقارنة والإحصاء والموازنة فتستعمل تقنيات ومناهج تتعلق بذلك.

وفي بعض الأحيان تكون الدراسة الواحدة مزيجاً من تلك المنطلقات، كما نرى ذلك في محددات الأسلوب، كالانزياح مثلاً، فكما يكون في القواعد النحوية يكون أيضاً في القواعد الصرفية، وأيضاً في القواعد البلاغية... بحيث يجد الدارس نفسه أمام إشكالية حقيقية، لا تعطيه إلا أن الانزياح خروج عن المؤلف وكفى، فيجد نفسه أمام بحر شاسع لا ساحل له، ما ينتج منه إلا أن يقف عند ما انقذ في ذهنه أو أسعفه الوقت وحجم البحث بأن يقف عنده، وهذا نموذج من إشكاليات التطبيق في التحليل الأسلوبي، وهناك غيره ما يجعلنا نتقل للعنصر الموالي لنذكر ما يمكن ذكره في هذا المقال.

خامساً) - إشكالية التطبيق: بعض الأسلوبيين درسوا النصوص الأدبية بمقاربتهم الظاهرة الأسلوبية بدءاً بعلاقة المبدع بالنص، وهنا انصب جهدهم على دراسة مدى انعكاس شخصية المبدع في نصه،

وتصبح الرسالة اللغوية حينها مطية للتعريف بشخصية المبدع، مما يدخل في إطار علم النفس اللغوية الذي يعتبر أحد مناهج المقاربة الأسلوبية.⁸

وبعضهم الآخر فقد ركّز اهتمامه على دراسة النصوص وعلاقتها بمتلقيها، إذ يهتم بمدى استجابة القارئ للنصوص وأهميته في ذلك، حيث يعد المتلقي، من خلال ملاحظاته منطلقاً طبيعياً لفحص الرسالة اللغوية الحاملة للنص.⁹

وهناك فريق آخر أقصى كلاً من المبدع والمتلقي في مقارنته للنصوص الإبداعية، وأبقى على النص وحده، إذ يرى أن النص هو الوحيد الذي باستطاعته إلى حد ما الكشف عن محموله الدلالي من خلال خواصه اللغوية التي تميزه عن نص آخر، أو يتميزا كاتبه عن كاتب آخر.¹⁰

وهذا الأخير هو الذي يغلب على التحليل الأسلوبي، وأغلب الدراسات الأسلوبية منكبة على النصوص من هذه الوجهة الأخيرة. وإشكالية المطروحة أثناء التحليل هي أنه لا يوجد ضابط أو ضوابط واضحة جلية تضبط المحلل في أي مستوى من مستويات التحليل المختلفة، يمكن أن يكون بمثابة الوصفة لجميع الدارسين، منه ينطلقون وعنده يقفون.

يقول الأستاذ تاوريريت بشير: «الواقع أنه لا توجد وصفة جاهزة تعتمد في التحليل الأسلوبي، وتطبق تطبيقاً آلياً مع الأطلمنان إلى أنها تتضمن مادة تقي الدارس شرّ الخطأ في التقدير والمجازفة في القول، وليس ثمة قواعد متجذرة ولا آليات ثابتة»¹¹.

بمعنى أنك لو أعطيت نصاً أدبياً لمجموعة من المحللين ليقوموا بتحليله على مستوى أو أكثر من مستويات التحليل لوجدت اختلافاً بيناً في التحليل في كل مستوى بين تلك الدراسات للنص الواحد من هؤلاء المحللين، حيث تجد كل واحد منهم سلك وجهة معينة في تحليله للمستوى المدروس، يختلف عن وجهة الآخر، فلا ينطلقون من منطلق واحد، ولا يقفون عند نقطة واحدة، ويختلفون في المادة المنتقاة، وما يجمعهم إلا المستوى المدروس وعموم المادة فيه.

أو خذ مجموعة من الأساتذة ليضعوا إجابة نموذجية في مقال منهجه منهج التحليل الأسلوبي، فإنهم سيجدون أنفسهم في صعوبة كبيرة ولدتها إشكالية التطبيق، وهم يدركون أنه لا يمكن وضع شيء مفصل يمكن أن ينضبط به جميع الممتحنين، لذا ما يكون أمامهم إلا خياراً واحداً هو وضع الخطوط العريضة، والملامح العامة لذلك التحليل، وترك الأمر لاجتهاد الممتحنين بأن تكون إجاباتهم ضمن ما يتحمله المستوى المدروس، أو المُحدّد الذي يقوم بتجليته من خلال النص.

بل لو ذهبت تتصفح مجموعة من الدراسات التحليلية الموجودة في بعض الكتب أو الرسائل أو البحوث والمقالات، لبقيت تائها في اتخاذ خطوات ثابتة متفق عليها في التحليل، كل ما تجده مستويات معلومة، وفي كل مستوى هناك مادة علمية تتعلق به، وهناك محددات مثلا تتعلق بالأسلوب، وفي كل مُحدّد مادة علمية تتعلق به، وهكذا، وتبقى أنت بين تلك المواد تتخير أيها يكون المناسب لك فتحدو حذوه، أو أي الأشياء التي يسعفك جهدك لتقف عندها وتحللها، أو أنك تنهج نهجا بمفردك ينضبط بالضابط العام فقط، ثم تعوم بحرك بمفردك وبما تملكه من قدرات وإمكانات على إكمال ذلك التحليل بالاعتماد على نفسك في تعيين مادة الدراسة، وفي كل الأحوال تجد نفسك أمام إشكالية حقيقية أثناء التطبيق تجعلك لا تدري من أين تنطلق؟ وأين تتوقف؟ أو ماذا تدرس؟ وماذا تترك؟.

خذ - مثلا - عنصر الاختيار الذي هو من محددات الأسلوب المعروفة، وقد قسمه الدارسون إلى نوعين¹²:

الأول: «انتقاء نفعي مقامي ربما يُؤثّر فيه المنشئ كلمة (أو عبارة) على أخرى لأنها أكثر مطابقة. في رأيه للحقيقة، أو لأنه على عكس ذلك، يريد أن يضلّل سامعه، أو يتفادى الاصطدام معه بحساسية تجاه عبارة أو كلمة معينة»¹³.

والثاني: «فهو انتقاء نحوي.. بمفهومها الشامل: الصوتية والصرفية والدلالية ونظم الجمل.. ويدخل تحت هذا النوع من الانتقاء كثير من موضوعات البلاغة العربية، كالفصل والوصل والتقديم والتأخير والذكر والحذف»¹⁴.

فحين نريد دراسة النوع الأول من الاختيار، فأنت أمام اجتهاد غير منضبط، يغلب عليه حدس الدارس، وملكانته، وما يراه مؤثرا، أو يراه يشكل توترا في النص، وما اختاره قد يتفق وقد يختلف مع اختيار القارئ، ونفس الشيء مع اختيار منشئ الكلام، والأمر نفسه يكون مع محلل آخر لنفس النص، وبالتالي لا نجد الإشكال في التنظير لعنصر الاختيار، لكن نجد الإشكال في التطبيق لأنه غير منضبط.

يقول صلاح فضل: «ومع أن بواعث الاختيار لا يمكن عموما أن نقف عليها بدقة في البحث الأسلوبي إلا في حالة النصوص التي وصلتنا مسوداتها وصياغات مختلفة لها من المؤلف ذاته فإنه بمستطاع البحث أن يعيد بناء الإمكانات المختلفة المتاحة للمؤلف ويحلل اختياره للإشارات الأسلوبية المعينة في لحظة تاريخية خاصة، مما يؤثر بلا شك على منهج التحليل الأسلوبي»¹⁵.

وعندما تأتي للنوع الثاني من الاختيار ستجد نفسك أمام مجال رحب واسع من قضايا اللغة المختلفة ومن مسائل البلاغة المتعددة، لا تدري تلقاء هذا الكم الهائل ماذا تأخذ؟ وماذا تترك؟ في هذا النوع من الاختيار، وكيف تكيف دراستك؟ وعلى أي شيء تركز؟، وخاصة مع النصوص الثرية، وبالتالي ستجهد وتدرس بعض الأشياء التي انطبعت في ذهنك أنها تحتاج إلى وقفة وتترك الباقي، وقد لا يكون ما اخترته ليكون مادة تحليلك هو المقصود لصاحب النص، ولا لقارئ ما، ولا محلل آخر، في حين لو كان هذا الجهد في علم من العلوم المعيارية لكان منضبطاً ومحدوداً ويمكن أن يحاكم فيه المحلل للقواعد المعيارية الحاكمة التي لا يختلف فيها اثنان، بل لو كانت مسائل خلاف فإن الخلاف فيها محدود ووجهات النظر محددة، لكن في التحليل الأسلوبي في استخراج وتحليل هذا النوع من الاختيار لا يمكن الجزم بأن هذا هو المراد وهو المقصود.

فالأسلوبية ترى النص أو الخطاب نتاجاً لغوياً لاختيارات معينة، من خلال رصد الطاقة الكامنة في اللغة، ومن خلال فهم إمكانياته وطاقاته وأبعاده، وفق مستويين، هما: المستوى المثالي في الأداء العادي، والمستوى الإبداعي الذي يعتمد على اختراق هذه المثالية وانتهاكها¹⁶. كما تهتم بحدوث بعض الظواهر اللغوية ووظيفة كل ظاهرة، وتهتم بالتنوعات اللغوية في التركيب التي لها دلالة فنية¹⁷، وبالتالي يُبنى التركيب من خلال الاختيارات من المخزون اللغوي، وتنظيم تلك الاختيارات بما يتلاءم والنسق الذي يدور فيه الكلام¹⁸. لذلك لا يمكننا التحدث عن الأسلوب من دون اللغة والقواعد التي تنظم استعمال هذه اللغة وهذا بدوره يؤدي بنا إلى معرفة العلاقة بين الأسلوبية والقواعد.

ونفس الشيء مع محدد الانزياح الذي يعتبر في المفهوم الأسلوبي أنه مقرون بمفهوم الأسلوب¹⁹، وهو في عمومته يراد به الخروج عن المؤلف لداع من الدواعي التي يراها منشئ الكلام، سواء أكان هذا الخروج صوتياً أم صرفياً أم نحوياً أم معجمياً أم دلالياً أم بلاغياً؛ عن طريق استغلال إمكانيات اللغة وطاقاتها الكامنة، يقول نعيم اليافي في تعريفه بأنه: «خروج التعبير عن السائد أو المتعارف عليه قياساً في الاستعمال، رؤيةً ولغةً وصياغةً وتركيباً»²⁰.

فإذا جئت للتحليل فستجد نفسك أمام باب واسع من الانزياحات وتكون حينها أمام انتقاء وتخيير لبعضها تاركا البعض الآخر، محاولاً ربط ذلك بالدلالة وتعليل تلك الانزياحات التي قمت باختيارها وانتقاءها من النص، دون أن تجد قاعدة أو ضابطاً أو حدا يجعلك تختار انزياحاً على آخر، وإنما هي انطباع الباحث واجتهاده وما يراه أولى من غيره فيقدمه ويؤخر الباقي، وقد لا يكون ذلك عند محلل آخر، ناهيك عن مقصود صاحب النص، وبالتالي يبقى الأمر مفتوحاً على المحللين

والقراء، وهذا الانفتاح غير المضبوط بشيء علمي يحتكم إليه الجميع يجعل النتائج دوما خاضعة للتجدد والتغير، بحكم أنها نسبية إلا إذا دخلها المنهج الإحصائي فتصير محسومة مقطوعة لكنها في ذات الوقت تكون جافة خالية من روج الجمالية المقصودة من النص الأدبي.

ومع كل ذلك نغض الطرف عن الاختلاف الحاصل بين الأسلوبيين في تحديد القاعدة المعيارية النظرية التي يتم الخروج عنها بفعل الانزياح، وما أحدثه هذا الاختلاف من فروق طفيفة بين الانزياح والانحراف أو الانزياح والعدول، وتلك التقسيمات التي لا نريد أن نثقل بها كاهل هذا المقال ويسعها بحث آخر متخصص في ذلك²¹.

بل عند تحديد مفهوم الأسلوب، أو دراسة المصطلح وحده - قبل النزول للتطبيق - ستلاحظ كما هائلا في تعريفه أو تحديد مفهومه، وكل ذلك يعود إلى شمولية مفهوم الأسلوب، وإلى طبيعة استخدامات مصطلحه، فصعوبة تحديد الأسلوب كامنة في جوهر الأسلوب ومعناه، فهو مما يسهل الشعور بوجوده وتأثيره في النفس ويصعب رغم ذلك ضبطه والتعريف به.

فيضفي ذلك على الدراسة التطبيقية شيئا من الغموض، ويطرح نوعا من الإشكال، تجعل الصعوبة واردة عند الحديث عنه، فهناك أشكال الأسلوب، وأنماط الأسلوب، ومستويات الأسلوب، وأنواع الأسلوب، كل هذا وغيره - بلا شك - ساهم في صعوبة الوصول إلى وضع حد جامع مانع لمصطلح الأسلوب ومفهومه، وبالتالي يكون لتلك الصعوبة أثرها أثناء التحليل لا محالة.

ومن هنا فإنك إن أردت تحليل الأسلوب بحثت عنه عبر المستويات التي ذكرناها، فتبحث عنه في الصوت، وتبحث عنه في التركيب، وتبحث عنه في الدلالة، وفي كل مستوى أمامك مجال شاسع في لغة النص لتعلل نوع الأسلوب أو جماليته من خلال ما انبعث في نفسك و انقدح في ذهنك من خلال قراءتك واستقرائك للنص المدروس.

أو يمكنك الحديث عنه من خلال المحددات التي ذكرناها ويمكنك في كل محدد أن تبحث في المستويات المختلفة تحت المحدد الواحد، ففي الاختياري تدرس الصوت والدلالة والمعجمية والنحو (التركيب) ... في كل ذلك معتمدا على عنصر الاختيار، ونفس الشيء مع الانزياح، فتبحث عن الانزياح الصوتي والدلالي والتركيبية وهكذا، وإذا جئت للتركيب فيمكنك التركيز على نوع التركيب من خلال نوع الجمل، أو من خلال نوع الأسلوب من حيث الخبر والإنشاء، أو من خلال استثمار الإمكانات النحوية المختلفة، أو من خلال تكرار الأنماط اللسانية.

ومن كل هذا نجد فريمان (d.c.freeman) قد وضع الحقل الذي تتحرك فيه الأسلوبية في دراسة النصوص الأدبية، وينطلق من خلاله المحلل الأسلوبي لتحليل البنى التركيبية، والذي يتمثل في ثلاثة أنماط، هي: 1 - الأسلوب بوصفه انحرافاً عن القاعدة. 2 - الأسلوب بوصفه تواتراً أو تكراراً لأنماط لسانية. 3 - الأسلوب بوصفه استثماراً للإمكانات النحوية²².

ونجد الدكتور محمد عبد المطلب قد خصص ثلاثة فصول كاملة في الباب الرابع من كتابه البلاغة والأسلوبية لتوضيح هذه الثلاث، العدول والتكرار النمطي والسياق. وقد تبنت وجهة نظر فريمان نظرية النحو التحويلي ومستوى اللغة في (البنية السطحية) و(البنية العميقة) والتحويلات السياقية التي تتمخض عن ارتباطهما. كما تبنت - أيضاً - النحو بمعناه التركيبي، ولم يقتصر الأمر على استثمار إمكانات النحو التحويلي²³.

كما أنه يمكنك أن تدرس الأسلوب بهذا المجال الواسع عبر المستويات التحليلية، وإمكانك أن تفرده بالدراسة والتحليل من خلال الدرس البلاغي، فتقف على الجانب الإخباري منه والإنشائي، وتحلل مستويات الأسلوب الإنشائي الطلبي المتمثل في الأمر والنهي والنداء والاستفهام والتمني، بحكم أن الأسلوبية وطيدة العلاقة بالبلاغة، وبمعيارية البلاغة يمكنك التحكم في تحديد الأسلوبي، والأمر الآخر هو الوصول للمعنى المراد بحكم أن البلاغة تهدف من خلال المعيارية لبيان المعنى المراد من الصيغ المختلفة التي يجري عليها الأسلوب في الحقيقة والمجاز.

ويمكن القول بأن صعوبة إدراك الأسلوب تتمثل في البحث عن العلاقة الجامعة بين الأشكال اللغوية في النص وبين وظيفتها الشعرية الأدبية الجمالية، أي هي في إدراك ذلك التحول الكيميائي العجيب الذي يحول الدوال اللغوية المادية في النص إلى دوال جمالية عاطفية أي محاولة تعليل ما نشعر به من الجمال وغيره من الأحاسيس التي تسربت إلى أنفسنا من لغة النص، فالجمال كامن في النص في أسلوبه في لغته، في تراكيبه وصوره الجمالية، ووظيفته الأسلوبية تتمثل في إقامة الدليل على ذلك الجمال.

ولهذا عندما نرجع للدراسات التحليلية الأسلوبية العربية - مثلاً - منذ أمين الخولي وأحمد الشايب إلى أن أخذت الدراسات الأسلوبية الإجرائية التحليلية تنتشر مع بداية الثمانينيات من القرن العشرين وتوسع رقعتها في التسعينيات، ومن تلك الدراسات "اللغة والإبداع" لشكري عياد، و"النقد والحداثة" لعبد السلام المسدي و"أساليب الشعرية المعاصرة" لصالح فضل و"البنى الأسلوبية" لحسن ناظم و"الأسلوبية الصوفية" أماني سليمان داود و"الأسلوبية" لفتح الله أحمد سليمان،

و"خصائص الأسلوب في الشوقيات" لمحمد الهادي الطرابلسي، وغيرها، فنجد أن هذه الدراسات تختلف في منهج التحليل وطرائقه وإجراءاته والمستويات التي تقف عليها في النصوص ونتائج هذه التحليلات²⁴.

الخاتمة: في خاتمة هذا المقال المتعلق بالمنهج التحليلي الأسلوبي وإشكالية التطبيق، يمكن أن نخرج ببعض النقاط تحوصل ما قلناه، والتي هي:

- الأسلوبية منهج نقدي معاصر في الدرس اللغوي الحديث، تولد من رحم اللسانيات، وقد أخذ عنها المنهج التحليلي الوصفي في دراسة اللغة من خلال النصوص الأدبية.

- الأسلوبية لها علاقات مع بعض العلوم اللغوية الأخرى؛ وهي تستثمر تلك الإمكانيات في تحليلها للنصوص، وفي ذات الوقت تمد تلك العلوم بما يكون مادة جاهزة لتوظيفها والحكم عليها.

- تختلف المنطلقات في التحليل الأسلوبي، من دراسة لأخرى، وهذا الاختلاف يسهم في تنوع التحليل الأسلوبي، ما يجعل الأسلوبية تستفيد من بعض الإجراءات المتاحة في المناهج الأخرى.

- كل هذا الذي ذكرناه أسهم بطريقة أو بأخرى في اعتماد المنهج الأسلوبي في الكثير من الدراسات، لما فيه من مرونة وسعة تستوعب العديد من القضايا في دراسة اللغة، ومع هذا لم يمنع كل ذلك من وجود إشكالية في التطبيق أثناء دراسة الأساليب، جعلت التحليل الأسلوبي لا ينضبط بضابط واضح يمكن الاتفاق عليه أو الاحتكام له، لذا تعددت وجهات التحليل في الدراسة الواحدة.

- هناك العديد من الأسباب الكامنة وراء إشكالية التطبيق في التحليل الأسلوبي، والتي منها عدم وجود منهج متكامل واضح المعالم، ما أدى للاحتكام للذوق وإمكانيات المحلل وقدراته وثقافته أثناء التحليل.

التهميش:

- 1 - ينظر - عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب - تونس، طبعة ثالثة، ص: 5.
- 2 - رشيد غنام: شعر أبي الحسن الحصري دراسة أسلوبية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الحاج لخضر - باتنة، سنة، 2012، ص: 16.
- 3 - ينظر - مومي بوزيد: مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، جامعة جيجل، مقال: الأسلوبية بين مجالي الأدب ونقده والدراسات اللغوية، العدد 9/ 2014، ص: 91، وما بعدها.
- 4 - ينظر - أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، دار الفكر - دمشق، الطبعة الثالثة، 1429هـ - 2008م، ص: 65 - 400.
- 5 - أحمد الشايب: الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة: الثانية عشرة 2003، ص: 41.
- 6 - ينظر - محمد بن أحمد الأزهري: تهذيب اللغة، 302/ 12. ومحمد بن منظور: لسان العرب، 1/ 473.

- 7- صلاح فضل: علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، دار الشروق- القاهرة ، الطبعة الأولى : 1419 هـ - 1998 م ، ص: 116.
- 8 - ينظر - مومني بوزيد: مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، ص: 99.
- 9 - ينظر - المرجع نفسه ، ص: 100.
- 10 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 11 - تاوريريت بشير: مستويات وآليات التحليل الأسلوبي للنص الشعري، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر- بسكرة، العدد الخامس، جوان: 2009.
- 12 - ينظر - موسى ربابعة: جماليات الأسلوب والتلقي، دار جرير، عمان، ط/1، سنة: 1429 هـ ، 2008 م، ص: 181.
- 13 - سعد مصلوح: الأسلوب دراسة لغوية إحصائية، عالم الكتب، القاهرة ، ط/3، سنة : 1423 هـ ، 2002 م، ص: 38.
- 14 - المرجع نفسه ، ص : 39.
- 15 - صلاح فضل: علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، ص: 204.
- 16 - ينظر - محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، ص: 268.
- 17 - ينظر - المرجع نفسه، ص : 299.
- 18 - ينظر - المرجع نفسه، ص: 305.
- 19 - ينظر - صالح علي سليم الشتوي: مجلة جامعة دمشق، مقال: "ظاهرة الانزياح الأسلوبي في شعر خالد بن يزيد الكاتب"، المجلد 21، العدد (3 + 4)، سنة : 2005 ، ص: 85.
- 20 - المرجع نفسه، ص: 84.
- 21 - ينظر - صلاح فضل: علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ص : 268 وما بعدها.
- 22 - حسن نظم : البنى الأسلوبية دراسة في أنشودة المطر للسياب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط 1: 2002 م، ص : 43.
- 23 - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
- 24 - ينظر - عبد الرزاق مدخل: المنهج الأسلوبي عند محمد الهادي الطرابلسي، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في النقد الأدبي المعاصر، جامعة الحاج لخضر -باتنة ، السنة الجامعية: 2011 - 2012، ص: 81.